التمهيد في فهم التصوف السديد

د/ أحمد خميس شتيه

مدرس الدراسات الإسلامية

كلية الآداب – جامعة دمنهور



تقديم : الحمد لله ذى الجلال والإكرام ، الملك القدوس السلام ، المؤمن المهيمن العلام ، أحمده سبحانه على نعمه الجوامع التوام ، وأستغفره من التقصير فى شكر ما أسداه إلينا من الإنعام ، وأتوب إليه تعالى من جميع الذنوب والخطايا والآثام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الذى من علينا بالهداية والإسلام ، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس والأنام ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، من أطاعه أدخله ربنا دار السلام ، ومن عصاه أدخله دار العذاب والانتقام ،أما بعد ،، فإن التصوف علم شريف ، يبين للمسلم القائم على حدود الله السبيل الواضحة لتزكية النفس الإنسانية ، وتنزيهها عن مرذول الأخلاق ومذمومها ، ثم يبين له الطريق إلى التحلى بالخصال المحمودة ، وذلك من خلال منهج واضح مؤسس على كتاب الله وسنة رسوله ، لا مجال فيه

لبدعة أو محدثة ، أو مخالفة أو شطح ، كذلك فإن المنتسبين إلى علم التصوف لم يعرفوا إلا بأنهم صفوة الخلق وأكثرهم مجاهدة وأعلاهم همة وأرفعهم درجة ، ولأن المفاهيم فى زماننا قد تبدلت ، وشوهت صورة التصوف فى أعين الكثيرين حتى باتت حقيقة هذا العلم الشريف متوارية بل ومنطمسة ، لذا كان التفكير فى كتابة هذه الرسالة المختصرة ، والتى تقدم تعريفا واضحا للتصوف ، وبيانا لمعناه ومرماه ، وموضعه من الدين الحنيف ، وآراء العلماء الثقات فيه ، ومن انتمى إليه من أهل العلم والفقه لنصل فى نهاية الأمر إلى التعرف على التصوف بوجهه الصحيح ، فالله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يؤيده بالقبول ، وبالله التوفيق وعليه قصد السبيل . . . .

المؤلف

ماهية التصوف

التصوف علم من أشرف علوم الدين ، وأعظمها فائدة ، وأسماها هدفا ومقصدا ، فهو العلم الذى يمكن الإنسان من التعرف على خبايا نفسه ودسائسها ، وخصالها المحمودة والمذمومة ، ومواطن قوتها وضعفها ، ويبين له الطريق القويم إلى تزكيتها وترقيتها ، والتدرج بها فى مدارج السلوك ، ومعارج القرب ، لتصادف من الأسرار ، وتشاهد من الأنوار ما يمنحها السعادة فى الوصول لمنازل الأبرار ، ومعية المختار ، ورضا الواحد القهار .

المفهوم العام للتصوف :

التصوف هو منهج كامل لتزكية النفس وإصلاح القلب والترقى فى مدارج السلوك ومراحله من أجل الوصول إلى مقام الإحسان ، وقد بين القرآن

الكريم أن العبد يكتب عند ربه من الفالحين إذا نجح فى تزكية نفسه وتخليصها من صفاتها المذمومة والتخلق بالأخلاق المحمودة ، قال تعالى " قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها "(الشمس ٩،١٠)، وكما نبه النبى صلى الله عليه وسلم أن صلاح أمر العبد مع ربه هو بصلاح قلبه ، عن النعمان بن بشير رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :" . . . . . ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب " .

أما مقام الإحسان فهو أعلى المقامات التى يصل إليها العبد فى سيره إلى الله ، والوصول إلى هذا المقام هو غاية كل متصوف صادق ، وقد عرف النبى – صلى الله عليه وسلم – مقام الإحسان بقوله فى حديث سيدنا عمر : " أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" رواه مسلم

فهذا هو المفهوم العام لعلم التصوف لمن أراد أن يتعرف عليه .

تعريفات التصوف على ألسنة مشايخه :

قبل أن نشرع فى ذكر تعريف التصوف جدير بنا أن نعلم أن أهل العلم من أرباب التصوف والسلوك قد اجتهدوا فى وضع تعريف جامع مانع لعلم التصوف فلم يستطيعوا ، إذ عرفه كل واحد منهم تعريفا مذاقيا ناتجا عن سلوكه هو ، الأمر الذى يبين لنا اتساع هذا العلم وشرفه وجدارته بالبحث والدرس .

و أقوال العلماء وتعريفاتهم للتصوف تزيد على الألف تعريف ، يقول السهروردى :" أقوال المشايخ فى ماهية التصوف تزيد على ألف قول "

(عوارف المعارف) ، وسوف أكتفى هنا بسرد بعض التعريفات من أقوال أئمة التصوف تبين للقارئ ماهيته وتوضح ملامحه :

سيدى أبو الحسن الشاذلى :

قال رضى الله عنه :

" التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية " (نور التحقيق)

وفى هذا التعريف أبلغ رد على من يحاولون تعريف الناس بالتصوف على أنه تحلل وخروج على الشريعة ، فالتصوف – وكما يعرفه الإمام الشاذلى – هو التطبيق الكامل لمنهج الله ، فالتصوف تدريب لنفس الإنسان على العبادة حتى تصير العبادة أمرا محببا لنفسه فلا يمل منها ، فتصير عبودية ، والتزاما بشرع الله وأحكامه المنزلة على النبى – صلى الله عليه وسلم ،

وعليه ، فالمتصوف إنسان مشغول بربه ، ملتزم بما أمر ، ولا يجد لذة عيشه أو اطمئنان قلبه إلا فى معيته سبحانه .

سيدى محى الدين بن عربى :

قال رضى الله عنه:" التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا " ، وقال أيضا : " التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف " (شرح كلمات الصوفية)

فالمتصوف يرى الدين كله أدبا ، ويرى الدين كله خلقا ، فعلامة المتصوف حسن خلقه وشدة أدبه ، وقد حرص مشايخ التصوف على بيان هذا المعنى لمريديهم فى مؤلفاتهم ، وكان حجة الإسلام الإمام الغزالى — رحمه

الله ورضى عنه – أعلاهم كعبا فى هذا المجال ، فقد قسم – رضى الله عنه – الدين كله إلى آداب فى كتابه الفريد " إحياء علوم الدين "

الشيخ أحمد زروق:

قال: " التصوف علم قصد به صلاح القلوب وإرادتها لله تعالى عما سواه، والفقه لإصلاح العمل ، وحفظ النظام ، وظهور الحكمة بالأحكام والأصول (علم التوحيد) لتحقيق المقدمات بالبراهين ، وتحلية الإيمان بالإيقان " (قواعد التصوف)

ابن عجيبة الحسينى :

قال : " التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك ، وتصفية البواطن من الرذائل ، وتحليتها بأنواع الفضائل ، وأوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة " (معراج التشوف إلى حقائق التصوف)

وهذا التعريف يعد تعريفا جامعا ، حيث يبين أن التصوف منهج متكامل للقرب من الله كما مر ، ورياضة ومجاهدة للنفس حتى يتم المراد الإلهى فتصفو النفس من الخصال الذميمة ، ويحصل التحلى بالصفات القويمة .

وفى نفس المعنى قال العلامة المنجوري :

(التصوف علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدرات النفس أي عيوبها وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء ، لأن علم التصوف يدل المريد على العيب وعلى العلاج وكيفيته ، فبعلم التصوف يتوصل إلى قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله تعالى) النصرة النبوية للشيخ مصطفى إسماعيل لمدني .

فتلك كلها تعريفات واضحة لا لبس فيها لمن أراد أن يتعرف على التصوف من ألسنة مشايخه وأربابه .

- وبعد ، فهذا غيض من فيض ، وقليل من كثير من تعريفات التصوف على ألسنة مشايخه ، وللتصوف – كما مر – تعريفات أكثر من أن تحصى ، تدور كلها حول تلك المعانى الشريفة التى أجملتها التعريفات سالفة الذكر .

فائدة التصوف للإنسان :

من العرض السابق نستطيع أن نخلص إلى أن فائدة التصوف للإنسان تكمن فى أنه يقدم للمسلم منهجا متكاملا يعينه على ما يلى :

- الالتزام الشرعى الكامل ، وذلك لأن قواعد التصوف تلزم المريد بالإلمام بالقدر المفروض من الفقه ، والذى تستقيم به العبادات .

- جهاد النفس ، وذلك عن طريق المحفزات المعينة له كـ (اتباع شيخ كامل مربى – الالتزام بورد ثابت من قراءة القرآن والذكر والصلاة على النبى – صلى الله عليه وسلم – الصحبة مع الإخوان التى تزكى روح الألفة والمودة والتنافس فى أوجه الخير) .

- الترقى من مرتبة الإسلام إلى مرتبة الإيمان فالإحسان ، والأخيرة هى محط رحال السالكين ومنتهى وصولهم .

– علاج الأمراض النفسية والقلبية التى تحول بين الإنسان وربه كالرياء والكبر والعجب وغيرها .

– التخلق بالأخلاق والصفات السامية التى اتصف بها النبى – صلى الله عليه وسلم– لأن التصوف خلق ، فليست هناك مبادىء فى الإسلام أسمى من تلك التى يدعو التصوف إلى تطبيقها ، ويرسم الطريق والمنهج الواضح إلى تحقيقها .

وعليه ، فالتصوف حسب ما مر هو التطبيق الفعلى والعملى للدين ، وفيه الاتباع الكامل لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

تاريخ التصوف

أكمل العبارات تلخيصا واختصارا لبيان تاريخ التصوف هى عبارة الإمام أبى القاسم القشيرى رحمه الله التى يتحدث فيها عن التدرج الزمنى لظهور القوم وعلومهم ، يقول :

" اعلموا رحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ لا أفضلية فوقها فقد قيل (الصحابة) ، ولما أدرك العصر الثاني سمي من صحب الصحابة باسم (التابعين) ورأوا ذلك أشرف تسمية، ثم قيل لمن بعدهم (أتباع التابعين)، ثم اختلفت وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين (الزهاد والعباد) ، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق

ادعوا بأن منهم زهادا ، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله – تعالى – الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم(التصوف) واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر بعد المائتين من الهجرة" .

ذكر من تصوف من أهل العلم

يسود الاعتقاد لدى البعض أن التصوف لا ينتمي إليه سوى ضعفاء العقول ، والدهماء والسوقة من الناس ، والحق أن من تسرب إلى فكره هذا الاعتقاد فقد جانبه الصواب مطلقا ، فإن التصوف كمذهب سلوكي راق قد أسس منهجه وأرسى قواعده عدد جم غفير من السلف الصالح ، ومن أهل الحديث والفقه والتفسير ، فمنهم على سبيل المثال لا الحصر السادة : الحسن البصري ، والفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وسفيان بن عيينة ، والإمام الجنيد بن محمد ، ومعروف الكرخي ، وأبو سعيد الخراز ، والحارث المحاسبي ، ويحيى بن معاذ الرازي .

أما أهل المذاهب والمحدثين فقد انتمى للتصوف منهم كثيرون أيضا منهم : شيخ الإسلام الإمام النووى ، وشيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى ، وشيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي، ، والحافظ ابن الصلاح ، وتقى الدين السبكى ، وسراج الدين أبو حفص عمر المعروف با بن الملقّن الشافعي ، والشيخ الدردير شيخ علماء المالكية .

وفى العصر الحديث انتمى لعلم التصوف كثيرون من الأئمة الثقات، فمنهم : الشيخ محمد أبو زهرة ، والدكتور عبد الحليم محمود ، والشيخ محمد متولى الشعراوى ، أما تسرب العامة والجهال إلى التصوف فجاء رغبة منهم فى القرب من الله ، غير أنهم أدخلوا فى التصوف ما ليس منه ، وأخذت هذه الفئة من العوام تتنامى حتى كانوا سببا فى تشويه صورة التصوف فى أذهان الخلق .

أقوال الأئمة فى التصوف والصوفية

من البديهى أننا إن تحير فكرنا فى أى أمر فإننا نرده لأهل الاختصاص من أجل الوصول إلى كلمة يطمئن إليها الخلق ، والمعنى المراد هنا أن الحكم على التصوف لابد وأن نرجع فيه إلى أهل الشرع ليحكموا فى الأمر بكتاب الله وسنة رسوله ، فلا يكون هناك أى مجال بعد حكمهم أن تتلاعب بنا الأهواء ، أو تجمح بنا الآراء بعيدا عن ساحة الحق .

وأدلتنا فى هذا المقام لن نأخذها إلا من أفواه الأئمة الأكابر ، وأئمة المذاهب ، فلهم فى التصوف كلمات موجزات ، كافيات شافيات ، تغنينا عن أى جدال أو مشادات فكرية ، وقد بينوا لنا فيها شرف هذا

العلم ، وفضيلة أهله والمنتسبين إليه ، وتعلق أهله بمنهج الله تعلقا كاملا ، وسلوكهم له سلوكا مخصوصا .

-الإمام مالك :

يقول رحمه الله تعالى : (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق) حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني في الفقه المالكي

والمعنى الذى نفهمه من عبارة الإمام مالك رحمه الله أن القرب من حضرة الحق جل وعلا ليس بالأمر الهين أو اليسير ، فلا يعتقد أهل العلم الظاهر أن علمهم برسوم الشريعة الظاهرة والتزامهم بها هو الطريق الكاملة الموصلة إلى حضرة الحق

، وهذا للأسف الشديد هو الاعتقاد السائد عند معظم المسلمين ، بل وعند المحسوبين على أهل العلم ، أما العلماء الراسخون فى كل زمان ومن تشرب العلم النفيس على أيديهم يعلمون أن طريق الوصول لن يكون إلا بصلاح القلوب وتزكية النفوس ومجاهدتها ، وترقية الأرواح على هدى من الكتاب والسنة ، وهم فى ذلك يعلمون أن السبيل الواضحة لنيل هذه المرادات إنما يكون بسلوك طريق التصوف ، إذ أودع الله فيه سر الترقية ومنهج التزكية،وسبيل التخلية والتحلية، فلا يصح إذن أن نحسن الظاهر دون تطهير البواطن ، وإلا وقع الكل فى جب النفاق ، وهو تحسين الظاهر أمام الخلق مع فساد الباطن مع الله نعوذ به من ذلك ، وهو ما أشار إليه الإمام بالفسق .

أما الصنف الآخر الذى أشار إليه الإمام فى عبارته هم من يعتقدون أن مجرد انتمائهم إلي التصوف كاف فى القرب من الله ونيل درجات الأولياء والمقربين دون التزام منهم بشرع الله وتكاليفه الظاهرة ، ومن اعتقد ذلك فقد أصاب دينه فى مقتل بسوء فهمه ورداءة عقله ، فلا معنى لطهارة الباطن إلا بتنفيذ أوامر الله وأحكامه على النفس ، فبكليهما يتم المراد ، ويحصل القبول ، فمن اكتفى بالباطن وترك الشرع الظاهر فإنما أضله الشيطان وخذله ، وأوقعه فى جب آخر أسماه الإمام مالك بالزندقة والعياذ بالله .

فعلى من أراد سلوك طريق التصوف ألا يسلكه إلا على يد شيخ عالم عارف كامل مرب ، مشهور بين الخلق بالعلم والصدق مع الله ، يأخذ عنه العلمين

الظاهر والباطن ، فيدخل الطريق بالعلم ، ويسير فيه على علم ، حتى يتم له المراد ، ويصير من العباد .

-الإمام الشافعي:

الإمام الشافعى له مقولتان مشتهرتان فى الثناء على التصوف والسادة الصوفية ،

قال رضى الله عنه : "حبب إلي من دنياكم ثلاث: ترك التكلف وعشرة الخلق بالتلطف والاقتداء بطريق أهل التصوف " (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للإمام العجلوني)

ويهمنا من الثلاثة أخيرتهم ، فإمام كالشافعى حينما يصف نفسه بأنه حريص على الاقتداء بقوم كالصوفية ، فكيف إذن يكون حال أولئك مع

الله، وإمام كالشافعى حينما يثنى على قوم هذا الثناء العظيم نعلم يقينا أن حالهم الشرعى حال لا أقول مرضية ، بل حال كاملة ، فافهم .

وقال رضى الله عنه أيضا :

" صحبت الصوفية فاستفدت منهم ثلاث كلمات ، قولهم: الوقت سيف إذا لم تقطعه قطعك، وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وقولهم : العدم عصمة " تأييد الحقيقة العلية للإمام جلال الدين السيوطي ، وأول ما يستلفت انتباهنا فى هذا العبارة المهمة هو الإشارة الأولى فى قول الإمام الشافعى رحمه الله: " صحبت الصوفية " : ومؤداها أن الإمام الشافعى لم يجد غضاضة أو تخوفا من صحبة الصوفية كما يخيل إلى البعض فى هذا الزمان ، بل إنه صحبهم ليتعلم منهم كما بان من العبارة الأولى ، وأفاد

منهم تلك العبارات التى أبانت حرص السادة الصوفية على جهاد نفوسهم واستثمار أوقاتهم فى طاعة الله والتقرب من حضرته .

-الإمام أحمد بن حنبل:

كان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أمة فى الحرص على حدود الله ، حتى عرفه الخلق بشدته وجرأته فى أمور الفقه ، تجنبا للشبهات ، ودرءا للمفاسد والزلات ، فلم يكن هذا الحرص منه مطلقا تعصبا لرأيه ضد الآخرين ، ولم يكن دفاعا عن هوى شخصى ، وإنما كان يحكم بما صح عنده من كتاب الله وسنة رسوله ، ملتزما بالأحوط من الفهم والاستنباط الشرعيين من النصوص الثابتة .

أما عن رأى الإمام فى التصوف والصوفية ، فإن الإمام فى بداية أمره كان يرى فى الصوفية ما يعتقده البعض فى زماننا فيظن فيهم الجهل والادعاء ،

حتى إذا بانت له حقيقتهم سارع بإظهار الحق و بلغ رأيه للخلق فى شأن التصوف والصوفية ، فقد روى أن الإمام أحمد رحمه الله قبل مصاحبته للصوفية كان يقول لولده عبدالله : (يا ولدي عليك بالحديث ، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية ، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلا بأحكام دينه ، فلما صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي وعرف أحوال القوم أصبح يقول لولده : ياولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة)

تنوير القلوب ص ٤٠٥ للعلامة الشيخ أمين الكردي

والإمام أحمد رحمه الله تعالى فى حكمه الأولى على الصوفية لم ينظر إلا لظواهر أمورهم ، دون اطلاع على منهجهم أو أحوالهم ، فتعجب من مجالسهم ، وانهماكهم فى الذكر حتى ظن أنهم يتركون العلم الشرعى ،

فحكم عليهم باحتمالية الجهل بأمور الدين ، وكثير من الناس يعتقد فى الصوفية هذا الاعتقاد .

غير أن الله تعالى أراد أن يبين للإمام حقيقة أولئك القوم ، وشدة قربهم منه ، وملاحظة العناية الإلهية لهم، فدله على رجل منهم صحبه زمانا ، فرأى منه شريف الأحوال ، ونفيس الأقوال ، ورأى فيه أخلاق الرجال ، فعلم أن الصوفية هم خاصة أهل الله، وأنهم خير قائم على دينه ، وملتزم لحدوده ، ومطبق لشريعته ، فبعد أن نهى ولده عن مجالستهم ، أمره بعد معرفته حقيقتهم أن يلزمهم ويتشرب منهم العلوم الشريفة التى تثمر تطهير البواطن ، وترقية السرائر، وتزكية النفوس ، وصار الإمام منذ هذا التاريخ يثنى على أرباب التصوف ، وقد تناقل ذلك أهل مذهبه فى مصنفاتهم ، فقد نقل العلامة محمد السفاريني الحنبلي عن إبراهيم بن

عبدالله العلائي رحمهما الله أن الإمام أحمد قال عن الصوفية: (لا أعلم أقواما أفضل منهم) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب

وتجدر الإشارة هنا أن عددا غيرهين من تلاميذ الإمام أحمد ومن علماء الحنابلة وفقهائهم قد انتموا إلى منهج التصوف فى التزكية انتماء ثابتا عنهم ، ومن أراد التوسع فى التعرف عليهم أو قراءة تراجمهم فليطالع كتاب " إعلام النبلاء فيمن تصوف من السادة الحنابلة الفضلاء " للأستاذ خالد حمد على.

الشيخ ابن تيمية والتصوف :

ينسب البعض التشدد فى التعامل مع السادة الصوفية والحكم عليهم إلى الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى ، ومن شدة رواج تلك المفاهيم المفتراة على الرجل نجد الكثيرين من الصوفية يتخذون موقفا شديدا تجاه الشيخ ابن تيمية ، وحقيقة الأمر أن شيخ الإسلام رحمه الله برىء من كل تلكم الافتراءات ، فاعتراض الإمام كله إنما انصب على من يشوهون التصوف ، ويدخلون فى منهجه ما ليس منه من البدع والخرافات ، وعلى من يدعون الانتساب إلى التصوف ثم لا يلتزمون بقواعد الشريعة وحدودها .

أما أقواله فى مدح التصوف والثناء على أهله من العلماء والأولياء والعارفين فلا تخفى على أحد ، إذ نجدها عبارات واضحة مثبتة فى مؤلفاته ومصنفاته ، ومن فرط اهتمام الرجل بالتصوف فقد أفرد مصنفا

مخصوصا لهم أسماه " الصوفية والفقراء " ، ويعرف الإمام ابن تيمية الصوفي بقوله :

" هو - أي الصوفي - في الحقيقة نوع من الصديقين فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه ، فكان الصديق من أهل هذه الطريق كما يقال : صديقو العلماء وصديقو الأمراء ، فهو أخص من الصديق المطلق ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين أنهم صديقون فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة أنهم صديقون أيضاً كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده ، وقد يكونون من أجلّ الصديقين بحسب زمانهم فهم من أكمل صديقي زمانهم ، والصديق من العصر الأول أكمل منه والصديقون درجات وأنواع ، ولهذا

يوجد لكل منهم صنف من الأحوال والعبادات حققه وأحكمه وغلب عليه ، وإن كان غيره في غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه " .

وهذا التعريف الواضح البين تعريف من أكثر التعريفات إنصافا للصوفية ، فالإمام يرى الصوفى صديقا كاملا ، بل قد يكون الصوفية من أجل الصديقين فى أزمانهم .

و هذه العبارة ليست هى الوحيدة للشيخ ابن تيمية عن الصوفية ، بل إنه فى الجزء العاشر من فتاويه تحدث عن أئمة الصوفية فقال :

" فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي، والسري السقطي ، والجنيد بن محمد ، وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد والشيخ أبي البيان وغيرهم من

المتأخرين فلا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين ، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف وهذا كثير في كلامهم "

وهذه العبارة أيضا شهادة حق من الشيخ ابن تيمية فى حق مشايخ الصوفية وأئمتهم يشهد لهم فيها بالمحافظة على الشريعة الظاهرة ، والتزام حدود الله فى منهجهم وفى تربية مريديهم .

وتحدث الشيخ ابن تيمية أيضا فى فتاويه عن تضارب أقوال العلماء وعامة المسلمين فى شأن الحكم على التصوف والصوفية ، فقال :

" طائفة ذمت الصوفية والتصوف وقالوا أنهم مبتدعون خارجون عن السنة ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف ،

وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام ، وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء ، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم ، والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين "

وعبارة الإمام هذه وإن كانت شديدة اللهجة إلا أنها لا تنقض ما قبلها ، بل هى تكملها ، ففى كل طائفة أناس عاملون وغيرهم مفرطون ، فالصوفية كغيرهم فى هذا الأمر ، والإمام ابن تيمية يؤكد هنا على المعنى السابق وهو أن التصوف الحق هو المبنى على شرع الله واحترام حدوده ، فتلك بعض مقولات لشيخ الإسلام ابن تيمية فى الثناء على التصوف

وأهلـه ، توضـح خطـأ مـن يعتقـد أن الإمـام رحمـه الله يكفـر الصـوفية أو يعاديهم أو يرفض منهجهم .

<u>الشيخ ابن القيم :</u>

وهو ممن ينسب إليه البعض التشدد فى التعامل مع التصوف ، ونكتفى بعرض بعض العبارات من سفره الثمين " مدارج السالكين " ، والذى يعد من أهم كتبه فى

مجملها ، ومن أهم المؤلفات التى تثبت الموقف الصحيح لأئمة المدرسة السلفية من التصوف والصوفية ، يقول الشيخ ابن القيم معرفا التصوف :

" التصوف زاوية من زوايا السلوك الحقيقي وتزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى، ومعية من تحبه ، فان المرء

مع من أحب ،كما قال سمنون (من أكابر الصوفية) : ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة ، فإن المرء مع من أحب ، والله اعلم" .

وهذا تعريف منصف آخر جاء على لسان أحد أئمة المدرسة السلفية ، أقر فيه بأن التصوف منهج سلوكى لتزكية النفس، يؤهل الإنسان إذا هو سلكه بحقه إلى رضا الحق ، ومعية سيد الخلق ، فالمرء مع من أحب " .

وفى كتابه " طريق الهجرتين " يبين الإمام ابن القيم شرف علم التصوف ، وأنه يقع فى المرتبة الثانية فى جملة علوم الدين بعد علم التوحيد ، يقول رحمه الله :"أن هذا العلم (التصوف) هو من أشرف علوم العباد وليس بعد علم التوحيد أشرف منه وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة".

وقال أيضا في كتابه (شرح منازل السائرين) :

"الصوفية ثلاثة أقسام : صوفية الأرزاق ، وصوفية الرسوم ، وصوفية الحقائق ، وبدع الفريقين المتقدمين يعرفها كل من له إلمام بالسنة والفقه ... وإنما الصوفية صوفية الحقائق الذين خضعت لهم رؤوس الفقهاء والمتكلمين فهم في الحقيقة علماء حكماء" .

فتلك هى آراء الشيخين ابن تيمية وابن القيم فى التصوف والصوفية ، جئنا بها من بطون مؤلفاتهم ، دون تحريف أو تأويل ، فافهم .

وقد صنفت رسالة مستقلة فى بيان موقف العلماء الذين ينسب إليهم الاعتراض على التصوف والصوفية ، صنفها الشيخ عبد الحفيظ المكى ،

وأسماها :"موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية "، أبان فيها عن احترام أئمة الحركة السلفية للتصوف أئمة ومنهجا وأتباعا .

علماء العصر الحديث

شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود :

قال رحمه الله فى كتابه الذى ترجم فيه لشيخ المالكية السيد أحمد الدردير صاحب "الشرح الصغير" فى فقه المالكية ، مانصه :"وما من شك فى أن التصوف هو القمة لمن أراد السلوك إلى الله ، فإذا كان الفلاسفة قد ضلوا الطريق ، فإن الصوفية متابعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ملتزمين لسنته ، قد ساروا على الطريق المستقيم" .

فالقرب من الله طرق وأساليب ، وها هو شيخ الأزهر الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله يختار التصوف من بين كل تلك الأساليب ليصفه بأنه أقرب هذه الطرق إلى الله ، وأن أهله هم أهل المتابعة الصادقة لسيدنا

رسول الله – صلى الله عليه وسلم ، فهى شهادة منه رحمه الله للسادة الصوفية بكمال الاتباع والبعد عن الابتداع .

الشيخ محمد متولي الشعراوي :

نقل العلامة الشيخ محمد زكى إبراهيم رحمه الله فى كتابه "أصول الوصول " عبارة طويلة للشيخ الشعراوى رحمه الله عن التصوف ، نأخذ منها قوله رحمه الله تعالى : " الصوفي يتقرب إلى الله بفروض الله ، ثم يزيدها بسنة الرسول عليه الصلاة والسلام من جنس ما فرض الله، وأن يكون عنده صفاء في استقبال أقضية العبادة فيكون صافيا لله والصفاء هو كونك تصافي الله فيصافيك الله" .

وقوله أيضا رحمه الله تعالى :

" والتصوف رياضة روحية لأنها تلزم الإنسان بمنهج تعبدي لله فوق ما فرضه، وهذه خطوة نحو الود مع الله ، وهكذا يمن الله – تعالى – على هؤلاء المتصوفين ببعض العطاءات التي تثبت لهم أنهم على الطريق الصحيح ، فتلك العطاءات هي خرق ناموس ما في الكون ، ويكون ذلك على حسب قدر صفاء المؤمن فقد يعطي الله صفحة من صفحات الكون لأي إنسان فينبئه به أو يبشره به ليجذ به إلى جهته " .

وأستطيع القول أن هذه العبارة عبارة جامعة ، من رجل أجمعت الأمة على علمه وورعه ورسوخ قدمه مع الله ، بين فيها فضيلة التصوف ، وشرف المنتسبين إليه ، كما أشار إلى صنوف العطاءات وألوان الكرامات التى يمن بها الله على العارفين من أهل التصوف .

أئمة التصوف والالتزام بالشريعة

يعتقد الكثيرون أن التصوف أمر بعيد عن شرع الله ، بل ونجد الكثيرين يتخوفون من سلوك طريق الصوفية ، أو حضور مجالسهم ، أو مجرد الجلوس إلي العلماء منهم ، ظنا منهم أن مفاهيم التصوف مفاهيم تخالف الشريعة ، وأن الصوفية ليسوا سوى عصبة من " الدراويش " أو جهلة العوام ، والحق أن التصوف هو الدين كله ، بل هو لب الدين ، ففيه الشريعة الظاهرة ، والطريقة المزهرة ، والحقيقة الباهرة ، وسوف أسوق للقارىء الكريم هنا بعض عبارات وردت على ألسنة أئمة التصوف فى وجوب الالتزام بالشريعة كركن من أركان علم التصوف .

الإمام الجنيد :

قال رضى الله عنه : " من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة " ، وقال : " مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ " .

والإمام الجنيد هنا وهو إمام التصوف يشدد على الموقف الصحيح الذى يجب أن يعلمه الخلق كلهم عن التصوف ، وهو أن التصوف علم كغيره من العلوم الشرعية التى تشعبت من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فهو مقيد بهما ، ولا ينفك عنهما بأية حال ، فمن سولت له نفسه من المريدين أن يسلك هذا العلم وهو مخالف للكتاب والسنة فلن يقبل منه ،

ومن اعترض على التصوف من غير أهله بحجة بعده عن الكتاب والسنة فقد ابتعد عن الصواب والإنصاف .

كذلك فالإمام – رضى الله عنه – يشترط فى المريد لكى تصح نسبته إلى الطريق أن يحفظ القرآن الكريم ، ويتعلم حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وإلا فهو ليس أهلا للطريق والسلوك .

وقوله : "علمنا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" ، يعنى أن القوم بنوا كل ما أرسوه من قواعد التصوف على ما من الله عليهم به من الفهم والاستنباط من الكتاب والسنة ، فمعارف القوم فى مجملها ما هى إلا عصارة فهومهم ومذاقاتهم فى فهم القرآن والسنة .

ومن أقوال الإمام الجنيد أيضا قوله : " الطرق كلها مسدودة عن الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته ، لأن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه ، وعلى المقتفين أثره والمتابعين "

وتلك عبارة واضحة الدلالة لسيد الطائفة رضى الله عنه لا تقبل التأويل ، يريد فيها الإمام أن يصل بالمريد إلى مستوى راق فى فهم التصوف ، فلا سلوك بغير التزام كامل وظاهر بشرع الله ، فالمريد الصادق إن أراد وصولا حقيقيا فعليه اقتفاء أثر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا ، فمن فهم التصوف على هذا النحو فتحت له أبواب الخيرات ، ومن خالفها لم ينل شيئًا من خير الطريق وأنواره .

سيدى أبو حفص عمر الحداد:

قال رضى الله عنه:" من لم يزن أفعاله في كل وقت بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا تعده في ديوان الرجال "

و تلك قاعدة شريفة أخرى من أجل قواعد القوم، فيها تنبيه للمريد الجاد السالك لأمرين هامين، أولهما : ضرورة طلب العلم الشرعى ، والعلم المقصود هنا ليس علم الفرائض فحسب ، بل العلم الذى يمكن المريد من تصريف كافة أمور حياته وهو على بينة ويقين كاملين من أمره ، والثانى : الانتباه الدائم إلى كل تصرف يهم به ، فعليه – حينئذ – أن يتريث عند كل موقف ليرى كيف يكون تصرفه فيه ، وهل سيكون هذا التصرف موافقا للكتاب والسنة أم لا .

فالشيخ هنا يريد القول أن المريد غير العالم بالشريعة وحدودها ، و الذى لا يرى عيب نفسه ، فلا يقومها أو يتهمها بالتقصير أو الخطأ ، يريد القول أن مثله عندهم ليس محسوبا على القوم ، وليس له نصيب من الانتساب إليهم .

سيدى أبو سليمان الدارانى:

قال رحمه الله تعالى : " ربما وقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عادلين : الكتاب والسنة " .

وتلك قاعدة جليلة أخرى من قواعد علم التصوف ، فمعلوم أن علوم السادة الصوفية علوم مذاقية ، لا تنقل من الكتب ، بل يفيضها الله على أهل وداده وقربه إكراما منه لهم وتثبيتا ، وهى المشار إليها بقوله تعالى عن الخضر" وعلمناه من لدنا علما " الكهف :٦٥ ، فسيدى الدارانى هو

أحد أكابر العارفين بالله ،وهو فى هذه العبارة يبين للمريد كيفية التصرف الأمثل والسلوك الأقوم حين يفيض الله عليه هذا الصنف الخاص من العلوم أو الفهوم أو الأحوال ، وهذا التصرف الأمثل يتلخص فى أن يعرض المريد أى خاطرة تعن له سواء فى فهم القرآن الكريم أو حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فى عموم الدين أو أمور الدنيا ، يعرضها أولا على الكتاب والسنة ، ليرى مدى موافقة ما خطر له لما جاء فيهما ، لأن العصمة فيهما ، فهما الوحى المعصوم ، والعاصم لكل أرباب الفهوم .

أبو الحسن بن أبى الحوارى :

قال رحمه الله تعالى: " من عمل عملاً بلا اتباع سنة رسول الله ﷺ فباطل " . وفى هذه العبارة الشريفة أبلغ رد على جملة التهم التى يتعرض لها التصوف فى

هذا الزمان ، وبيان للحال الحقيقية التى يجب على كل منتسب للتصوف أن يعيها ويلتزمها .

وبعد ، فها هم أئمة الصوفية يلزمون مريدين وتلاميذهم ومن أخذوا عنهم العلم بالتزام الشرع الظاهر ، وعدم الحيدة عنه فى أى سلوك أو فكر أو حال .

الاعتراض على التصوف وعوامله

بعد العرض السابق ، وبعد أن ثبتت لدينا حقائق كثيرة عن التصوف وموقف الدين الحنيف والعلماء الأكابر منه ، بقى لنا أن نناقش بصدق وإنصاف العوامل التى أدت إلى تشويه صورة التصوف والإساءة إلى الصوفية ، وطرح السبل التى قد تكون عونا على حصول صحوة تجدد شباب التصوف وتعيد إليه مصداقيته فى عقول وقلوب المسلمين ، وهذه العوامل منها :

- محدودية الحرص الصوفى على نشر منهج السادة الصوفية فى تزكية النفس والترقى فى مدارج السلوك ، الأمر الذى أدى إلى تخريج جيل من المريدين الذين الذين لا يعرفون من التصوف سوى مسماه ، فهم فى حقيقة الأمر منتسبون إليه اسما لا فعلا ، ففقد التصوف معناه وروحه فى نفوس

المتصوفة ، وأدى هذا التفريط فى المنهج والقواعد إلى فقدان مفاهيم التربية الصوفية ، فظهر الكثيرون من المتصوفة بمظاهر غير شرعية ، واعتقد معظم الناس أن تلك المظاهر هى من التصوف أو هى التصوف كله ، ففقد التصوف مصداقيته فى نفوس عموم المسلمين فى حين يفترض بالمتصوفة أن يكونوا هم القدوة الصالحة للمجتمع المسلم كله كما كان على هذا أسلافهم ، والخروج من هذا المأزق الكبير لن يكون إلا بالعودة إلى المنهج الكامل للسادة الصوفية ، والحرص على نشره وتدريسه وتعميق أثره فى نفوس المريدين ، ليعود الصوفية مصابيح منيرة تهتدى بها الأمة كما اهتدت بأئمتهم من قبل، غير أن هناك من الصوفية نماذج مشرفة ،وأقمارا متألقة ، يهتدى بها إذا أظلمت القلوب ، ويلتجأ إليها إذا ادلهمت الخطوب ، فالأولياء الكاملون المربون ، والعلماء العاملون

المجددون ما زالوا بين أظهرنا ، يعلمون ويسلكون ، ويصححون ويقومون ، ومازالت هناك الكثير من المدارس الصوفية السنية التي أعز الله بها التصوف في مصر والعالم الإسلامي .

- انشغال الكثيرين من أهل الطرق بأمور الدنيا ، والتنازع على المناصب وعرض الدنيا الزائل، معتمدين على كثرة الأتباع ، غير أن ديننا الحنيف يوجهنا إلى الأخذ بالأسباب فى مختلف الشئون ، فالحفاظ على الطريق لابد فيه من التماس أسباب التربية والتوجيه والإرشاد والفتوح ، وقد تعلمنا من سادتنا أهل الله أن الشيخ مسئول أمام الله عن كل مريد من مريديه ، فالشيخ راع ومسئول عن رعيته ، فالواجب هنا أن يتفرغ أهل الطرق لإرشاد وتربية مريديهم ، وينأون بنفوسهم عن مظاهر الدنيا ومناصبها ، فما أشرف الدعوة إلى الله ، وما أحسنها وظيفة أقامهم الله

فيها ، وهذا المعنى نجده متجسدا واضحا فى مشايخنا الأكرمين أجمعين ، حيث أوقفوا نفوسهم لله ، ووهبوا حياتهم لخدمة طريقه ، منشغلين بالمهمة التى كلفوا بها ، مقبلين بها على الله ، مبتغين رضاه ، مدبرين عن كل أمر أو عرض يحول بينهم وبين إتمامها ، موقنين بالثواب الجزيل من المولى ذى الفضل الجليل .

- كثرة الانتقادات الموجهة للتصوف والصوفية فى هذا الزمان ، والتى أضعفت من الموقف الصوفى، خاصة أن هذه الانتقادات لا تقابل فى أغلب الأحيان بدفاعات أو ردود مكافئة ، فلابد من فتح قنوات الحوار المبنى على التسامح بين الصوفية وبين الرافضين للتصوف ، لتفهيمهم الصورة الصحيحة للمنهج الصوفى ، والبحث عن نقاط الالتقاء ، والتفاهم حول نقاط الخلاف ، من أجل اتفاق يصبو إلى

وحدة المجتمع المسلم، بدلا من حرب النبرات العالية التى تشهدها الساحة الآن .

- فقدان التواصل الإيجابى بين كثير من الطرق الصوفية وبين مختلف طبقات المجتمع المسلم ، فلابد من الانفتاح على كافة الأطياف والطبقات ، وذلك من أجل توصيل صورة واضحة عن التصوف ومنهجه ، وما يحمله من خير للمجتمع المسلم .

- ضآلة الدعم الموجه إلى التصوف ، وقلة الإمدادات الداخلية الموجهة إلى الطرق ، وتلك مشكلة كبرى ، أدت على مدار سنوات عدة إلى ضعف الكيان الصوفى وتحجيم إمكاناته ، والرأى هنا هو اعتماد هيكل تنظيمى فى كل طريقة ، يقوم على تنظيم الأمور المتعلقة بالماليات ، وتنظيم النفقات ، بحيث يكون هناك مبلغ دورى أو شهرى يفرضه كل

مريد على نفسه من أجل دعم طريقه الذى ينتسب إليه ، وأن يوجه هذا القدر إلى نشر المنهج الصوفى والإعلان عنه بمختلف الأشكال والوسائل مقروءة كانت أو مسموعة أو مرئية .

خلاصة القول

أستطيع أن أجمل المضامين التى احتوت عليها هذه الرسالة في النقاط التالية :

- التصوف هو علم الأدب مع الله ، وهو العلم الذى يقدم للإنسان منهجا كاملا يعرفه به الطريق لتزكية نفسه وتطهير باطنه ، والسبيل إلى التخلى عن الصفات المرذولة ، والتحلى بالخصال المحمودة .

- يهدف علم التصوف إلى الارتقاء بنفس المسلم حتى يصل إلى أعلى مراتب الدين ، وهى مرتبة الإحسان ، ليكون دينه خالصا ، وإيمانه كاملا .

- التصوف علم مؤسس على الشرع الظاهر ، فلا مجال فيه للبدع أو المحدثات ، بل إن منهجه بكامل أركانه مؤصل على ما اتفق عليه أهل

العلم من فهم الكتاب والسنة ، كما أن مشايخ الصوفية لا يرون سلوكا للمريد عندهم إلا بعد التفقه فى الدين ، وحفظ قواعد الشريعة الظاهرة ، وحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليكون سيره كاملا بعيدا عن الشطط أو الخروج عن قواعد الدين الحنيف .

• علم التصوف علم قديم وضعت قواعده وأساساته فى العصر الأول للإسلام ، فهو علم نشأ فى الوقت الذى نشأت فيه غيره من علوم الدين .

• ثمة اتفاق بين أهل العلم على أن التصوف علم شرعى ليست به أية شبهة تنقضه أو تصمه بالبعد عن منهج الله .

• انتمى إلى علم التصوف عدد جم غفير من السلف الصالح الذين أصلوا قواعد هذا العلم ، ومن أهل الفقه والتفسير والحديث كذلك ، كما انتمى

إليه عدد جم من الحفاظ ومشايخ الإسلام ومشايخ الأزهر قديما وحديثا ، كما أثنى عليه وعلى أهله الكثير من أهل العلم .

• ادعاء البعض أن أئمة المدرسة السلفية كالشيخ ابن تيمية والشيخ ابن القيم يكفرون السادة الصوفية أو يرمونهم بالتحلل أو الشرك ادعاء باطل ، تنقضه مؤلفاتهم أنفسهم ، وما ثبت من مقولاتهم هو مدح وثناء على الصوفية فكرا ومنهجا ورجالا ، أما التشدد الذى نسب إليهم إنما كان مع من ينتسبون إلى التصوف ثم يلصقون به البدع والضلالات التى تخالف الشرع الشريف .

• التصوف علم من العلوم الشرعية ،انتسب إليه قوم ليسوا من أهله، فكما ظهر المشبهة والمجسمة فى علم التوحيد ،وظهرت فئة الوضاعين فى علم الحديث،فقد ظهرت فئة من أدعياء التصوف، أساءوا إلى

قضيته وشوهوا صورته فى عقول وقلوب المسلمين،غير أن التصوف منهم براء ، فقواعده ثابتة، وأركانه مكتملة،فمن خالفها فهو معنى بنفسه،ولا يؤاخذ به التصوف أو الصوفية مطلقا .